صيد السمك

للكاتبة الانجليزية سر سفيلد

بقلم الأديب حسن جشي

فى صباح باكر من أيام يناير ١٩٣٠ غادرت أنا وأخى وخمسة أصدقاء لنا مدينة سنجاو، ووجهتنا متشيجان لصيد السمك. وقد يلوح للمرء أن من الغريب أن يذهب أحد فى شهر يناير للصيد فى جو كجو متشيجان هذا، ولكن ينبغى أن أذكر أن كثيرين يكسبون قوت عامهم خلال هذا الشهر.

كان الأفق منيراً، والسبيل واضحة، ومع أن الأرض كانت مغطاة بالجليد؛ الا أن الحرارة كانت فوق الصفر ببضع درجات، والجو دافئا، وتدثرنا بالملابس الغليظة، واستصحبنا معنا صناديق الذخيرة، وقد وضعنا القهوة الساخنة فى «الترموس»

وإذ وصلنا خليج سجناو وهو البقعة التى اخترناها للصيد وجدنا الجليد يتوغل قرابة ميل فى اتجاه البحيرة، فتركنا عربتنا على الشاطىء، وحملنا منها بعض الذخيرة، جاعلين وجهتنا حافة الجليد؛ ومضى الرجال يظرحون شباكهم على بعد مائة قدم؛ أما أنا فقد تدثرت بالحرام، وجلست على قطعة من الثلج، وأخذت فى مطالعة كتاب كنت قد أخذته معى

وأقبل الرجال ظهراً، وقد أصابوا صيداً كبيراً وكان كل منهم قد اشتد به الجوع، وإذ كنت المرأة الوحيدة بينهم، فقد قمت باعداد الطعام وتهيئته، ثم جلسنا حوله نلتهمه، متجاذبين فيما بيننا أطراف الحديث، أما أنا فقد جلست أنصت اليهم، إذ كانوا يتكلمون عن تجاربهم فى الصيد ومهارتهم فيه، مما لايدع مجالاً لامرأة. ثم عادوا إلى الصيد؛ وإذا بالشمس تختفى؛ ثم اربد الأفق وتجهمت السماء، وتراكمت السحب، وهبت ريح عاصف، وأخذت قطع الثلج يصطدم بعضها ببعض فى صوت قوى أرعبنى.

الكاتبة

ولما أفصحت لأخى عن مخاوفى ضحك منى، وسخر بى وطلب الى أن أخرج ما اصطاده من شبكته، حتى أشغل عن هذا الفزع. ولما أتممت ما وُكل إلى أداؤه، اقترح أن أقوم بنفس هذا العمل الآخرين.

كان أربعة رجال منهم قد جلسوا على يسار أخى

(توم) متحدثين ؛ ولما أتممت عملى مضيت ناحية الصياد الأخير ويدعى ويلاند ، وكان صديقا قديما لى فجلست بجواره ، وأخذنا نتحدث فيما بيننا ، ثم أقبل « توم » واشترك فى الحديث ؛ وأخذ الجليد يصطدم بعضه ببعض ؛ وبالرغم من ضحك رفاقى كنت خائفة ، إذ لاحظت أن الريح أخذت تشتد عن ذى قبل ، وتموى هدارة صاخبة ؛ وفى الحال أخذت كتل من الثلج هائلة الحجم تندفع بشدة وتهوى الى البحيرة ، فاقترحت على توم أنه ربما كان الأجدى علينا أن نغادر هذه البقعة ، ولأول مرة فى حياته خضع لطلبى ، وأخذنا نعمل جميعا معا فى نقل ذخيرتنا .

وانحنيت لالتقاط بضع سمكات حينما سمعت صوت اصطدام هائل ، فانتصبت ، فاذا بى أرى لشدة هلعى واضطرابى شريطاً أسود من الماء قد فصلنا نحن الثلاثة عن الأربعة الآخرين ، فصرخت بأعلى صوتى ، واذ ذاك أبصرت قطعة الثلج التى نحن وقوف عليها ، قد أخذت تتحرك ناحية البحيرة ، فقفز توم وويلاند فى مكانهما ، واندفع الأربعة الآخرون يجرون هنا وهناك وينصحوننا بما لا طائل تحته ... كان طول كتلتنا الثلجية مائة قدم ، وعرضها سبعين تقريباً ؛ فجرى توم الى حافتها ، وحاول أن يلقى بأحد أطراف شبكة صيده الآخرين ولكن لم تساعده قواه وما كسته الريح ، وازدادت مساحة الانفصال بيننا وبينهم ! فرمى بالشبكة ثانية ففشل أيضا ، اذ وقع فى الماء ، وأحاطنى (ويلاند) بذراعه ، وقد اصفر وجهه وجذبنى الى وسط الكتلة الثلجية ، فقد كان ذلك كما يظهر آمن مكان ، إذ كانت الحواف تتهشم قطعا قطعا ؛ وأخذت الريح تشتد عنفا ، وتدفعنا سريعا الى ناحية البحيرة ، وكان الهلع قد اشتد بى فى هذه اللحظة ، ولكن زميلىّ أقبلا علىّ يشجعاننى ، فأخذا يشيران الى الشاطىء حيث كان رفيقان من رفاقنا يدفعان العربة ، ولكن الجو أخذ يربد عن ذى قبل ، وعم الظلام حتى لم نستطع أن نتبين أحداً ، وأقبل الليل ورأيت أن حجم كتلتنا الثلجية قد تضاءل الى نصف حجمها الأول ، وابتلت ملابسنا بما كانت تسفينا به الريح من ماء ؛ ولم ألبث أن شعرت بالبرد القارس فأجلسنى توم وويلاند بينهما ، ودثراني بغطائين مما أحضرته ؛ أما رفاقنا الآخرون فقد اختفوا تماما ، ولم يدع الرجلان وسيلة من وسائل التسلية إلا حاولاها معى ، وأقبلا يطمئنان خاطرى بأن لا بد من مجىء قارب نجاة بعد قليل . وأخذ الثلج يتحرك بشدة فزاد ذلك فى رعبنا ، واشتد البرد ؛ ولم تلح أى بادرة من بوادر النجاة . ثم أشعل توم عود ثقاب ونظر فى ساعته ، فاذا نحن فى منتصف الليل ، فكان لنا فى هذا الموقف ثمانى ساعات . وحاول (ويلاند) إلباسى معطفه الجلدى ، فأبيت ذلك ؛ ومن ثم سار وسط الحلوكة محاولاً معرفة ما بلغته الكتلة من مساحة ، ولم أستطع أن أرى أكثر من ستة أقدام أمامى ؛ غير أنى لاحظت أنه سرعان ما رجع إلينا ، فسألته عما صارت إليه الكتلة وما بقى من الثلج ، ولكنه لم ينبس ببنت شفة ، فتخاذل جسدى كأنما خدّر ، وشعرت كأنى فى غيبوبة .

وعلى حين فجأة صرخ توم واختطفنى ثم دفعنى عن نفسه إلى الجانب العكسى ؛ فدُرْتُ عدة مرات حول نفسى قبل أن أتمكن من الوقوف ، ثم التفتُّ زاحفة إليه ألهث ، وقد أبصرته منبطحا على الثلج ، وأمامه الماء ، ولم أعرف إذ ذاك ما كان

يفعله توم ؛ ولما اقتربت من الحافة أكثر ولمسته قال : « هاتى يدك يا بنتى ! »

فمددت إليه ذراعى ... وإذ ذاك عرفت ما كان يعمل

لقد كان يحاول إنقاذ ويلاند ؛ ذلك أن قطعاً من الثلج قد انفصلت وانزلقت فى الماء وعليها (ويلاند) ؛ فجذبنى أخى ، ولما عرف أنى أصبحت بمأمن من الغرق مدّ يده لجذب زميلنا ، وحاولت أنا الأخرى انقاذه ، ولكن لم أتبين يده أو جسمه لشدة الظلام المتراكم بعضه فوق بعض ، واستطعت أخيراً أن أمسّ أصبعه ؛ ولقد كان صراعا عنيفا لا أستطيع وصفه .

ونجحنا أخيرا فى جذبه ، وأحسست كأن ذراعىّ سينفصلان عن جسدى ، وأخذ الثلج يتراجع الى الوراء ، ورقد ويلاند أمامنا كأنه الجثة الهامدة ؛ وظل ثلاثتنا بضع دقائق واجمين صامتين من شدة الفزع والرعب ؛ ثم احتملناه الى الكتلة الجليدية ودثرناه بالأغطية ، ولما لم يُجْدِ فيه هذا العلاج ، أخذ توم فى تحريك ذراعيه بقوة ، يدفعهما الى الأمام والخلف ليسرى الدم فى عروقه . وإذ ركعت بجانبه تبينت أن الماء قد أحاط بنا احاطة السوار بالمعصم ، ولم يبق منَ الكتلة الثلجية الطافية سوى مساحة لا تتجاوز عشرين قدما ، فافزعنى هذا ، والتفت الى (ويلاند) وقد غشى عليه ، وصرخ أخى فجأة وقد قفز قفزة عالية فالتفت فاذا نور ينبثق من مشعل سفينة وهو يتلألأ وسط هذا الديجور القاتم وأخذنا ننظر إلى هذا الضوء فى لهفة وشوق وهو آخذ فى الاقتراب منا لحظة بعد أخرى ، ومر أمامنا ست مرات ، وبعد لحظات قلائل أنزل زورق النجاة وسار تجاهنا ، وقفز منه رجلان نحونا ، ودثرانى بالأغطية ، وحملانى الى الزروق ثم عادا لويلاند وتوم

وسار بنا الزروق الى الباخرة ، فأبصرت جزيرتنا الصغيرة وقد خلع عليها الضوء لونا شفقيا بهيجا ؛ ولم أشعر بلذة ما فى حياتى كلذتى وأنا أرشف القهوة الساخنة التى ناولنا إياها الضابط فى حجرته بالسفينة ؛ وشربت ثلاثة أكواب منها ، فأحسست بالقوة تسرى فى جسدى ، ثم شعرت برغبة شديدة فى النوم ، ولما استيقظت بعد أربع عشرة ساعة أبصرت نفسى على سرير فى إحدى المستشفيات . أما ويلاند فقد استعاد صحته برغم ما حاق به من أهوال بعد يومين . أما أخى فقد كان أسرع منه

ومنذ تلك المخاطرة ، قصرت صيدى للسمك على المياه الضحلة خلال شهرى مايو ويونيو ؟

مس مبنى